الأسلوب البلاغي في كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي
- رسالة الضب أنموذجا-
Rhetorical style in Sheikh Ibrahimi's writings writings- Dhab letter as a sample study

أ(ة).نصيرة شيادي

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان– الجزائر

الملخص:

إنّ المتتبع لأسلوب الشيخ البشير الإبراهيمي في رسالة الضب يجد أنه أسلوب فصيح منتقى متخير، أثرُ القرآن فيه واضح لفظا وأسلوبا، ومردّ ذلك لثقافته الدينية؛ هذه الأخيرة التي شكّلت رافدا بلاغيا مهمّا طعّم به الشيخ الإبراهيمي كتاباته؛ ولذلك لم يكن من الغرابة بمكان أن نجد لها دورا فعّالا في توجيه قريحته لما تمتاز به من البيان والسحر والجاذبية، ولما تتضمنه من معان وأفكار سليمة، وتعاليم رشيدة. فالقرآن إذن المعين الذي اغترف منه الشيخ الإبراهيمي ولجأ إليه في كل حين فاستولى على نفسه، واستهوى قلبه، فراح يتلهف إليه، وينهل من نبعه.

ونحن حينما نطّلع على أسلوب الشيخ البشير الإبراهيمي في رسالة الضب نجده أسلوبا بلاغيا أثرُ القرآن فيه واضح فكانت ألفاظه واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، ولا يحتاج القارئ وهو يتعامل مع رسالته إلى جهد عظيم حتى يتسنى له الوقوف على المعنى، أو العودة إلى المعاجم والقواميس حتى يتمكن من الوقوف على مقاصده وأهدافه؛ فهو من سبيل السهل الممتنع، القرب المنال، الدقيق الدلالة، الحامل للمعاني بقدر الألفاظ، ولم يكن من وراء كتاباته يهدف لأكثر من تقديم المبنى وتوصيل المعنى، وفي هذه الورقة البحثية سنحاول الوقوف عند جماليات الأسلوب البلاغي في كتابات الإبراهيمي من خلال رسالته الضب.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الأسلوب، رسالة الضب، الإبراهيمي.

Abstract:

The follower of the style of Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi in the message of the Dhab will find that it is an eloquent, selective, and chosen style, the effect of the Qur'an is clear in wording and style, and this is due to his religious culture; The latter, which constituted an important rhetorical tributary, with which Sheikh Al-Ibrahimi grafted his writings; Therefore, it was not surprising that we found her an effective role in guiding his intuition due to its eloquence, magic and attractiveness, and the meanings and sound ideas it contains, and rational teachings. The Qur'an, then, is the source of inspiration from which Sheikh Ibrahim took refuge and resorted to it at all times.

When we look at the style of Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi in the letter of the lizard, we find it is a rhetorical style in which the impact of the Qur'an is clear, so its words are clear and there is no ambiguity or ambiguity in it, and the reader, while dealing with his message, does not need a great effort so that he can stand on the meaning, or return to dictionaries and dictionaries even able to identify his purposes and objectives; It is an easy and impossible way, close to reach, accurate significance, bearing meanings as much as words, and behind his writings he did not aim for more than presenting the building and communicating the meaning.

Keywords: Rhetoric, style, the message of the lizard, Ibrahimi.

.

مقدمة:

لقد عاشَ الإبراهيمي[1] حياة طويلة نسبيا امتدّت على مدى ستة وسبعين عاما وكانت حافلة بالأحداث والمواقف والتقلّبات والأسفار والرحلات والجهود الكبيرة والأعمال الجليلة[2]، ولذلك عُنيَ عدد من الباحثين والمؤلفين باستعراضِ مسيرة حياة الإبراهيمي، والمراحل التي مرّ بها والأحداث التي عاصرها، والمواقف التي وقفها من هذه الأحداث، والجهود التي بذلها في خدمة دينه ولغته ووطنه،

وكان حيثما حلّ وفي أيّ مجلس نزل وفي أيّ مقام وقف، يُبهرُ القلوب بسحر بيانه وجودة كلامه وروعة خطابه، وهذا راجع لاستفادته الجمّة من القرآن الكريم كيف لا؟ وهو من وُلدَ وترعرع في كنف قبيلة عربية عريقة، الأمر الذي كان

[1] ولد البشير الإبراهيمي بن محمد السعدي بن عمر بن محمد بن السعدي بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي يوم الخميس الرابع عشر شوال عام 1306 هجرية، الموافق لـ 13 جوان 1998 م، بقبيلة أولاد براهم بقرية رأس الوادي بدائرة سطيف. ينظر: محمد البشير الإبراهيمي في قلب المعركة (1954 م- 1964 م)، جمع وتصدير: أبو القاسم سعد الله، دار الأمة، الجزائر، ط 1، دت، ص 90 -98 .

[2] من مؤلفاته في اللغة نذكر: "بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر"، "النقايات والنفايات في لغة العرب"، "أسرار الضمائر في العربية"، "التسمية بالمصدر"، "الصفات التي جاءت على وزن فعَل"، "نظام العربية في موازين كلماتها" ، "الاطراد و الشذوذ في العربية"، "ما أخلت به كتب الأمثال السائرة"، رواية "كاهنة أوراس"، "رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية والعامية". ينظر : محمد البشير الإبراهيمي، رسالة الضب منشورة ضمن آثار الإمام جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997م، 5 /288- 289 .

له كبير الأثر في تربيته وتنشئته وبناء شخصيته، و تشكيل فكره.[1] ولذلك ما إن توفي حتى انتبه الدارسون والمؤلفون إلى أهمية دراسة هذا الجانب من شخصيته، وإبراز خصائصه التي تميز بها عن غيره.

1-التعريف برسالة الضب: وجَّه الإمام "رسالة الضب" إلى تلميذه الأستاذ أحمد ابن أبي زيد قصيبة في مدينة الأغواط، بعد أن أهدى هذا الأخير ضبا محنّطا للطفل أحمد نجل الإمام، وكان ذلك بتاريخ 11 شوال 1359هـ نوفمبر 1940 م.[2]

قسّم الشيخ رسالته إلى فصول، ارتأيتُ أن أعنون كل فصل بما يتماشى وفحواه؛ فالإبراهيمي بعد أن عرّف حيوان الضبّ واصفا الصحراء وشجاعة الإنسان العربي، وكذا براعة العرب في وصف الحيوانات والنبات والشجر، وبعد أن دافع عن اللغة العربية وبيّن غناها المعجمي، قسمّ الرسالة إلى ثمانية فصول كالتالي :

1-1- الفصل الأول: الضب في دائرة المثل:

ينطلق الشيخ في هذا الفصل من قول العرب: "أعقد من ذنب الضبّ"، ليوضح إصابة العرب في مواضع التمثيل، وأنّ في المخلوقات أشياء كثيرة ذات

[1] يقول الشيخ الإبراهيمي: "فمما لا شك فيه أنّ نسبنا عربي صميم، إن لم يكن في قريش فهو في هلال بني عامر، لأن موطننا الحاضر من المجالات التي كان لبني هلال فيها مضطرب واسع لأول هجرتهم من صعيد في أواسط المائة الخامسة". ينظر: الإبراهيمي، في قلب المعركة، ص 89 – 90 .

[2] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 40/2.

عجز هذا من جهة، ومن جهة أخرى يبين أنّ إكثار العرب من ضرب الأمثال بهذه الزواحف والحشرات الحقيرة كان تنويها بشأنها، وتنبيها للمتوسمين والباحثين في مخلوقات الله ليزداد المؤمن إيمانا بالخالق.

ثم يتعرض لنوعية لحم الضب أحلال هي أم لا؟ انطلاقا من امتناعه صلى الله عليه وسلم عن أكله فقال: "لا أحرم ما أحلّ الله ولكنه ليس بأرض قومي، وإنَّ نفسي لتعافه"[1]، ليجرّه الحديث عن ظاهرة لغوية وهي (الشذوذ اللغوي في الجر) انطلاقا من المثل القائل (هذا جحر ضب خرب)، فالشيخ يرى أنَّ هذا النوع من الجر مسموع عن العرب، وهو من شذوذاتهم اللغوية وانحرافاتهم عن مقاييس لغتهم، وهو مقبول منهم، لكنه مقصور على ما سمع عنهم.[2]

ثم يمضي الشيخ في وصف الضب[3]، ليتوصل لشروط صياغة المثل. يقول: "والواجب في الأمثال أن تكون جُملا حكيمة ذات معانٍ مُستقيمة وألفاظ قويمة، حتى يحصِّل الحافظ لها فائدتين: الحكم اللفظي والمعنى الذي يترك أثرا في النفس، ومن مجموع هذه الأمثلة يتكون الأدب والأديب"[4].

1-2- الفصل الثاني: الضب في دائرة العلوم الطبيعية: وفي هذا الفصل يظهرُ لنا الشيخ في حلّة جديدة، وهي شخصية ابن المقفع في كتاباته ومعارفه من خلال

---

[1] المرجع السابق، 2 / 43.
[2] نفسه، 2 / 44 .
[3] نفسه، 2 / 44- 45.
[4] نفسه، 2 / 46.

كتابه "كليلة و دمنة"؛ وذلك حين بيّن لنا أنّ الحيوانات كانت تتكلم من خلال بيتين شعريين يُوضح لنا طريقة عيش الضب في الوسط الطبيعي[1].

1-3- الفصل الثالث: الضب في مباحث المستشرفين والحكماء:

حيث يوضح الشيخ الإبراهيمي أنَّ دعوى العرب لدلالة الضب على نفسه، أو تزيينه للناس لأكله ترجمة غامضة لحقيقة كونية تكلّم عنها الحكماء الباحثون في أسرار الكون والمستشرفون لحكمة الخالق[2].

1-4- الفصل الرابع: الضب والمكنُ:

يوضح الشيخ في هذا الفصل أنّ العرب تستطيبُ لحم الضب، حتى صار لهم أثرا و خبرا كما يستطيبون أكل بيضه[3].

1-5- الفصل الخامس: دلالة الضب في المثل العربي:

حيثُ وجّه الشيخ انتباهنا إلى أنّ العرب تضربُ المثل بالضب في عدّة غرائز؛ فيضربون به المثل في الحيرة، فيقولون "أحير من ضب"، والعقوق، فيقولون "أعقُّ من ضبّ"[4].

---

[1] ينظر: رسالة الضب، 2 / 46- 47.

[2] نفسه، 2 / 47.

[3] نفسه، 2 / 48.

[4] نفسه، 2 / 49.

1-6- الفصل السادس: الضب بين الحكمة الإلهية و الجانب العلمي:

يقف بنا الشيخ على حقيقة التكاثر عند الضب، ومحاولة ربطها بحقيقة التكاثر عند الإنسان[1].

1-7- الفصل السابع: دلالة اسم الضب في قاموس أنساب العرب

وهنا يثيرُ الشيخ قضية مهمة، وهي علاقة اللفظ بالمعنى، فيبين كيف أنّ العرب تسمي أبناءها بأسماء قبيحة جافية لها علاقة بالضب وبالشجر ... وذلك قصد الاعتزاز بهم والاعتماد عليهم في الغارات والانتصاف من الأعداء، فأبناؤهم لعدوّهم في حين تسمى العبيد بأسماء حسنة قصد المهن المنزلية أو الخدمة فكلها سلم و اطمئنان ، فعبيدهم لأنفسهم[2].

1-8- الفصل الثامن: تذكير بالوزير المغربي

يقول الشيخ إنه رجل عجز المؤرخون أن يحللوا سيرته تحليلا صحيحا؛ حيث أنه كان شعلة ذكاء وحفظ للآداب أصناف المعارف.[3]

ويختم الشيخ البشير الإبراهيمي رسالته بقوله: "هذا ما جرى به القلم مما جرَّ إليه ذكر الضب الذي أهديتموه لولدي الصغير، فأحسنتم بذلك إلى شيخ كبير، فقد تذكّر بسببكم بعض ما كان ناسيا، وأبى إلاّ أن يشكر إحسانكم بكتابة هذا القدر

[1] ينظر: رسالة الضب، 2 /49-50.
[2] نفسه، 2 / 50.
[3] نفسه، 2 / 51.

إليكم، عسى أن تستفيدوا منه فائدة، فيكون جزاء على تسبّبكم في الخير، ولو كان هذا لحَدثانِ في المطالعات الواسعة أو في وقت الحداثة وامتلاء الحافظة، لكانت هذه الرسالة مزاحمة لرسائل القدماء في الإحاطة وجمع الأطراف"[1].

2 – جمالية الأسلوب البلاغي في رسالة الضب:

إنّ الأسلوب إنما هو طريقة الكاتب في استعمالاته اللغوية التي قد يكون وظيفتها إعلامية، أو تعبيرية أو إقناعية[2]، ويختلف الأسلوب من كاتب إلى كاتب تبعا لنظرة كل واحد إلى الأمور وكذا رؤيته وتناوله لها.

والمتتبع لأسلوب الشيخ البشير الإبراهيمي في رسالة الضب، يجد أنه أسلوب فصيح منتقى متخيَّر، وأثرُ القرآن فيه واضح لفظا وأسلوبا، ومردُّ ذلك إلى ثقافته الدينية؛ إذ "تربّى الشيخ البشير الإبراهيمي في بيئة يشكل القرآن الكريم فيها حجرَ الأساس في الحياة الاجتماعية والثقافية، وتشبع به حفظا وتلاوة، وكان أول ما وعته ذاكرته شأنه في ذلك شأن كثير من العلماء وتغلغلت تعاليمه وقيمه الربانية في فكره ووجدانه..."[3]

---

[1] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 / 52 .

[2] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتحديد، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412 ه /1992م، ص 92 .

[3] محمد محي الدين، ثقافة البشير الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه –عيون البصائر نموذجا، (رسالة ماجستير)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2007 م – 2008 م، ص 48.

إنّ القرآن الكريم قدّم أرقى مستوى من مستويات البيان والمضمون معا؛ فقد "استثمر كلَّ الطاقات الكامنة في اللغة العربية، وأنشأ بين صيغها علاقات جديدة"[1]، وبالتالي يُعدُّ رافدا بلاغيا مهمّا طعَّم به الشيخ الإبراهيمي كتاباته، واقتبس منه ليُجمّل به تعابيره و يُحسّن أسلوبه؛ ولذلك لم يكن من الغرابة بمكان أن نجد له دورا فعّالا في توجيه قريحة الشيخ الإبراهيمي لما يمتاز به من البيان والسحر والجاذبية، ولِما يتضمنه من معان وأفكار سليمة، وتعاليم رشيدة، وفي هذا يقول الشيخ: "فالقرآن كتاب يحملُ في ثناياه دين الله الكامل، وكل ما سبقه من الكتب والصحف، فهي إرهاصات له وشارات به، وإشارات إليه ابتعث به نبيه الأمين محمد صلى الله عليه وسلم لهذا العالم الإنساني كله ...هاديا له إذا ضلّ، ومصححا لخطئه إذا أخطأ، ومخرجا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة ... ومحررا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونا، ومرشدا إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها"[2].

فالقرآن إذن المعين الذي اغترف منه الشيخ الإبراهيمي ولجأ إليه في كل حين، نظرا لما اشتمل عليه من نصاعة البيان و فصاحة القول، فاستولى على نفسه، واستهوى قلبه، فراح يتلهف إليه وينهل من نبعه.

---

[1] شلتاغ عبود شراد، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة ، ط1، 1987م، ص 71.

[2] محمد السعيد الزاهري، الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير، دار الكتاب، الجزائر، دط، دت، ص 40.

ونحن حين نطّلع على أسلوب الشيخ البشير الإبراهيمي في رسالة الضب، نجده أسلوبا بلاغيا أثرُ القرآن فيه واضح، فكانت ألفاظه واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، ولا يحتاج القارئ وهو يتعامل مع رسالته إلى جهد عظيم حتى يتسنى له الوقوف على المعنى، أو العودة إلى المعاجم والقواميس، حتى يتمكن من الوقوف على مقاصده وأهدافه، فهو من قبيل السهل الممتنع، القريب المنال، الدقيق الدلالة، الحامل للمعاني بقدر الألفاظ .

ولم يكن من وراء كتاباته يهدف لأكثر من تقديم المبنى وتوصيل المعنى، ومن ثمّ كانت لغته سهلة بعيدة عن التعمية والإبهام أو الصعوبة والتكلف، وهذا راجع لاستفادة الشيخ من تلقّيه لعلوم القرآن أيّما استفادة؛ فهذا الأخير أثّر على أسلوبه الكتابي البلاغي في رسالة الضب بشكل إيجابيّ، فامتلك ناصية الكتابة البلاغية الفصيحة.

وكان أسلوب الشيخ البلاغي في رسالة الضب "يُعنى بالصور البيانية بشكل جلي ... فاللغة عنده ليست وسيلة فقط، ولكنها هدف أيضا، ومن ثمّ فإنّ أسلوبه يمتاز بهذه الصياغة الخاصة التي تراعي التوليد في المعاني والصيغ، وتهتم بالاستعارة اهتماما شديدا"[1]؛ فالإبراهيمي له أسلوبه المتميز برصانته وإحكام بنائه، وانتقاء ألفاظه الجزلة الفخمة، وحسن التأنق في صياغته، فهو كما يصفه الأستاذ "عبد المالك مرتاض": "استمرار للأساليب الفحلة القديمة، وتطور لتعابيرها وطرائقها

[1] عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983 م، ص 147.

في تدبيج القول وزخرفة الكلام، لذلك يجد فيه الباحث كثيرا مما يجذبه الأساليب الفحلة القديمة من جزالة الألفاظ ووضوح في المعاني وحرص على التأنق في الأسلوب، ورغبة في رشه بالمحسنات اللفظية والمعنوية على اختلافها"[1].

فالشيخ الإبراهيمي أدرك أثر البيان والبديع في جمالية النص القرآني، فلجأ إليهما غير مرة في رسالته الضب ومن أمثلة النوعين نذكر:

2-1- البيان: البيان هو علم يبحث في الطرق المختلفة للتعبير عن المعنى الواحد، ويتألف من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية.[2]

ومن أمثلة البيان الواردة في رسالة الضب:

2-1-1- التشبيه: وهو "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"[3] ، وقد وظّف الشيخ الإبراهيمي التشبيه في رسالته بقوله : "ولا شك أن الآكل الأول للضب ما أكله إلا بعد أن استهواه شيء فيه من سماته الظاهرة كالكشية"[4].

---

[1] عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1983 م، ص 336.

[2] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة –المعاني والبيان والبديع، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424ه / 2003 م، ص 5 .

[3] المرجع نفسه، ص 164.

[4] رسالة الضب منشورة ضمن آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 2 / 48 .

2-1-2- الاستعارة: هي "اللفظ الدال على معنى غير ما وضع له بالأصالة لعلاقة بينهما على جهة المبالغة"[1]، أو هي "مجاز لغوي مقيّد، جارٍ على صفة التشبيه بالاستعارة، وهذا نحو تشبيه الشجاع بالأسد، والمنية بالسبع، وحاصلُ الأمر فيما ذكرناه أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتترك الآخر، وتريد به ما تركت التعبير عنه مُدَّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالا بذلك على أنك تكون آتيا للمشبه بما يختص المشبه به ولهذا تقول (رأيت الأسد)، وأنت تريد الشجاع"[2].

ولجأ الإبراهيمي للاستعارة في معرض حديثه عن اعتزاز العرب بالصحراء فقال: "و إذا أردت أن تفهم بعض السر في خصيصة العرب في الوصف، فاعلم أنّ الصحراء لبستهم ولبسوها، حتى أصبحت حياتهم جزءا منها ..."[3]

2-2- البديع:

إذا ألقينا نظرة على القرآن الكريم، فإننا نجده يزخر بمختلف أصناف البديع التي سطّرها أرباب البلاغة في كتبهم، ولكنها لم تكن للزينة فقط، وإنما هي ألفاظ دعاها المعنى، حتى إذا أخذت هذه الألفاظ زخرفها وازّيّنت كانت في مواضعها التي يراد لها أن تكون فيها كان للمعنى جلاء وبيانا، وللكلام فضلا

[1] الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم حقائق الإعجاز من العلوم المعنوية و الأسرار القرآنية: يحيى بن حمزة العلوي، تحقيق: بن عيسى باطاهر، دار المدار الإسلامي، ط 1، 2007 م، ص 350 .

[2] المرجع نفسه، ص 307.

[3] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 /42.

وتأثيرا، ومن هذا المنطلق وظّف الشيخ البشير الإبراهيمي الطباق والجناس والسجع في رسالته الضب.

2-2-1- الطباق: عرفه السكاكي (ت 626 هـ) بقوله: "هو أن تجمع بين متضادين"[1].

وقد وظّف الشيخ الإبراهيمي الطباق في مواضع عدة من رسالته، من ذلك قوله في التعريف بالضب: "فقد كان هذا الحيوان -أي الضب- محظوظا عند العرب دون كثير من الحيوانات الجزرية، فدرسوا ظاهره و باطنه"[2].

ويضيف قائلا وهو في معرض حديثه عن الصحراء: "ومن هاهنا جاشت نفوس العرب، وتفتقت قرائحهم عن روائع الفلسفة الوصفية للصحراء و أرضها و سمائها وليلها ونهارها ..."[3]

كما لجأ الإبراهيمي إلى الطباق في معرض حديثه عن ظاهرة الشذوذ اللغوي في الجر فيقول: "...فلست على ثقة من أنّ مثال النحاة مسموع من العرب، وإنما هو مثال سوقي انتحلوه ثم قلد آخرهم أولهم"[4].

---

[1] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1987 م، ص 423.

[2] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 / 40.

[3] نفسه، 2 / 41.

[4] نفسه، 2 / 44.

2-2-2- الجناس : هو "من الحلي اللفظية والألوان البديعية التي لها تأثير بليغ، تجذب السامع وتُحدث في نفسه ميلا إلى الإصغاء والتلذذ بنغمته العذبة، وتجعل العبارة على الأذن سهلة ومستساغة، فتجد من النفس القبول وتتأثر به، وتقع من القلب أحسن موقع"[1].

ويُفصّلُ عبد القاهر الجرجاني (ت 474ه) في الجناس بقوله: "أمّا التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميدا، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيدا ... فقد تبين لك أنّ ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلاّ بنصرة المعنى؛ إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلاّ مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به"[2].

نفهم من هذا الأخير أنَّ الجناس لا يستحسن إلاّ إذا ساعد اللفظُ المعنى، وهذا ما عمل الشيخ البشير الإبراهيمي على تجسيده في رسالة الضب، فمن قبيل الجناس الناقص ما ذكره حين تأمّل الضبّ قال: "فو الذي خلق الضبّ والدبّ ...ما لو خلعت عليه أيام الصبا جددا، ونفضت عليه ماء الشباب مِدادا ومَددا"[3].

---

[1] عائشة حسين فريد، وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء، القاهرة، دط، 2000 م، ص 161 .

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دط، دت، ص 7- 8.

[3] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 / 40 .

وفي معرض حديث الشيخ عن علاقة الصحراء بالأمة العربية، لجأ كذلك إلى الجناس الناقص لتقوية المعنى المراد تبليغه فقال: "...فإنَّ هذه الصحراء التي هي آية من آيات الله في أرضه، أو هي باب الفلسفة من هذا الكتاب الأرضي لم يعمرها الله بأمة تشرّبت معانيها، وتغلغلت دقائقها، ولاءمت روحُها روْحَها مثل الأمة العربية"[1].

وفي أسلوب بلاغي جيّد الصياغة والسبك يمزج الشيخ الإبراهيمي بين جناسين ناقصين في فقرة تجمع بين فكرتين: الأولى حول مشروعية أكل لحم الضب؛ إذ يعترف بتقصيره كونه لم يسأل أهل مكة عنه، والثانية حول ظاهرة الشذوذ اللغوي في الجر يقول: "و هذا التقصير الذي شاهدته، وشهدت به على نفسي ناشئ عن قصور في ملكة التأمل والبحث إذ ذاك؛ لأنها كانت مزاحمة بالأبحاث الدينية، وإنّ رواية هذا الحديث في مجالس الرواية لا تثير في النفس أكثر من الاهتمام بحكم أكل لحمه شرعا، وهو اهتمام له حظ واعتبار في موضوعه وجوِّه الخاص، ولكنّ المثال الفج "الصامط" الذي لا يثير في النفس اهتماما، بل اغتماما هو المثال الذي تعلّمناه من كتب النحو وهو قولهم: "هذا جحر ضب خرب"[2].

[1] المرجع نفسه، 2 / 41.

[2] المرجع السابق، 2 / 44.

ويستشهد الإبراهيمي بقول للزمخشري (ت 538ه) يوظف فيه الجناس الناقص يقول: "وتذكّرنا كلمة الكشى بكلمة للزمخشري من كلمه النوابغ، وهي: ما الأعراب بالكشا أولع من القضاة بالرشا"[1].

2-2-3- السجع: هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد[2].

وعرفه الخطيب القزويني (ت739ه) بقوله: "السجع هو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، وهذا معنى قول السكاكي الإسجاع في النثر كالقوافي في الشعر"[3].

واستعمل الشيخ الإبراهيمي السجع خدمة للمعنى، فحلاوة الألفاظ المسجوعة وقوتها ولطافتها تكون مكمِّلة للمعنى أولا؛ لأنّ الجري وراء الزخارف اللفظية والسعي وراء السجع سينسي صاحبه حتما في المعنى الذي يريده، وهذا ما لا يغفل عنه الشيخ، فلم يفتح على نفسه باب التكلف الممقوت، فلقي كلامه قبولا عند المتلقي، ومن أمثلة العبارات المسجوعة في رسالة الضب قوله: "فو الذي خلق الضبّ والدبّ، وأنبت النجم والأبّ، فخلق النوى والحبّ"[4].

---

[1] نفسه، 2 / 47.

[2] ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار النهضة، القاهرة، دط، دت، 193/1.

[3] الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة – المعاني والبيان والبديع، ص 296.

[4] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 / 40.

ويختم الإبراهيمي رسالته بعبارة مسجوعة أضفت جمالية بلاغية على رسالته، يقول: "هذا ما جرى به القلم مما جرَّ إليه ذكر الضبّ الذي أهديتموه لولدي الصغير، فأحسنتم بذلك إلى شيخ كبير"[1].

ولأنّ الشيخ البشير الإبراهيمي نهل من القرآن الكريم كثيرا، واستفاد منه كثيرا، فلا عجب أن نجده يوظّف الأسلوب الحجاجي في كتاباته، فإذا كان البيان والبديع أبرز ناحية من نواحي عبقرية الشيخ في كتاباته إذ كان يلبس خواطره ألوانا قشيبة من البيان والبديع، كما تبين من خلال رسالة الضب فإنه لم يترك العنان لقلمه يكتب ما يشاء، وإنما كان يكسو تلك الخواطر بقواعد الفكر والمنطق، فتجيء مقالاته منظمة، مرتبة كحبات اللؤلؤ التي تنتظم في واحد، بحيث تأخذ كل حبة حيزها المكاني فيه، فلا تطغى واحدة على أخرى ...[2].

والإبراهيمي يستند في أسلوب الحجاج على ثلاث ركائز ثقافية: تمكُّنُه من اللغة، ومن أساليب النحاة في الجدل والمناظرة، وإحاطته بالفلسفة والمنطق ووسائلهما في إثبات الموقف ودحض حجج الخصوم[3].

---

[1] المرجع نفسه، 2 / 52.

[2] ينظر: محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي واللغة العربية، (رسالة ماجستير)، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1986 م – 1987 م، ص 106.

[3] محمد محي الدين، ثقافة البشير الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه –عيون البصائر نموذجا، ص 207.

والقضايا التي خاض فيها البشير الإبراهيمي معتمدا أسلوب الحجاج كثيرة ومتنوعة في "رسالة الضب"، من ذلك ما ذكره دفاعا عن اللغة العربية، حيث يقول: "إنّ هذه الكتب الخاصة بالنبات والشجر لَبرهان مستقل قائم على مقدار اتساع هذه اللغة الشريفة وإحاطتها، ودليل من جهة أخرى على فضلها على المعارف البشرية، وجواب مُسكِت للذين يهرفون بتنقص هذه اللغة، ويرمونها بضيق العطن والقصور عن استيعاب المعارف، وتوبيخ مرٍ لزعنفة من أبناء العرب العاقين الذين يلوون ألسنتهم بمثل هذا الكلام، ويشايعون لجهلهم وفسولة أخلاقهم، وانحراف أمزجتهم العربية أعداءَها على ذمِّها والزراية بها والتقليل من خطرها، وأنا لا أرى دواء لهذه الزعنفة التي ضلّت عن جهل إلا الاحتقار، فما بفقدهم بنقص عديد العرب، ولا برطانتهم يقل شأن العربية و يخف وزنها"[1].

ويلجأ الشيخ لأسلوب الحجاج مرة أخرى، وهو يشرح المعنى الحقيقي للتدجين يقول: "وليس لأمة من الأمم ما لهم في وصف الحيوانات الضارية، وإنَّ أمم الحضارة على وفرة أدواتها لم تدرس الضواري إلاّ بعد أن دجّنتها، وفاتهم أنّ التدجين يذهب بكثير من الخصائص الطبيعية لها، فيفوت بذلك على الدارس كثير من النتائج، واعتبر ذلك بتدجيننا – ونحن بشر– كيف اغتال خصائصنا ومقوماتنا، ومسخ معنوياتنا، حتى أصبحنا أحطَّ من بعض أنواع الحيوان، أما العرب فخالطوا الضواري في أغيالها والتحموا مآسد خفان والثرية وترج وغيرها، وذللت أرضها أقدامهم، ومنهم من عايش الضواري حتى ألفها وألفته، وجمع بينهما

[1] البشير الإبراهيمي، رسالة الضب، 2 / 42.

عالم كعالم المثال عند الصوفية، فلطفت في السبع سورة لسبعية، وشرتها وامتدت في العربي الميزة الحيوانية، وتقاربت الغرائز في الجو الحيواني لوسط، فصدق الوصف وحق التصوير، ولو لم يكن العربي أمِيًّا، وكان ممن يدرس الأشياء على المناهج العلمية لأتى العالم بالمعجزات"[1].

الخاتمة:

استنادا لكل ما تقدّم، أقول إنّ هذا ما أمكنني الوقوف عليه من جماليات الأسلوب البلاغي للشيخ الإبراهيمي في رسالته الضب، ولا شكّ أنّ هناك جماليات أخرى وسمات أخرى، ولكنها جماليات الأصلُ فيها القرآن الكريم، الذي اغترف منه الشيخ وكان معينه الذي لا ينضب؛ فأثَّر في أسلوبه الكتابي البلاغي، فضرب في علوم البلاغة بقسط وافر، وسبق فيها سبقا بعيدا، فمهما نُقرُّ ما للباحثين الجزائريين من مشترك يجمعهم مع غيرهم من العرب، سواهم في أطاريح قراءاتهم للغة والأدب والنقد، إلاّ أنّ البحث الجزائري له من الخصيصات والسمات التاريخية والجغرافية والعلميّة والنفسية والاجتماعية ما أهّله لأن يظفر بفسيفساء التنوّع والتعدّد، وذلك في القراءات المهتمّة باللغة عند علماء القراءات والأصول والدراسات القرآنية والصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والعروضية والبلاغية، وهلم جرّا ...

وما رسالة الضب للشيخ الإبراهيمي إلاّ نموذج صغير عن هذه الفسيفساء، حيث تميّز أسلوبه بعديد الجماليات التي جعلته أسلوبا فصيحا بلاغيا، وهذا ما

[1] المرجع السابق، 2 / 41.

يظهر من خلال قراءتنا لرسالة الضب، فنجده سهلا ممتنعا في الوقت ذاته، حيث إنَّ الرجل كان رجل دين بالدرجة الأولى، ومستبحرا في علوم كثيرة هذا من جهة، كما أنّ انضمامه – رحمه الله – لجمعية العلماء المسلمين التي لم تكن تهتمّ فقط بالوعظ والإرشاد، بل إنها كانت تنحو مناحي أدبية جمالية ساهمت في بلورة أسلوب الكتاب والشيخ البشير الإبراهيمي واحد منهم.

قائمة المراجع:

أولا – الكتب:

1- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1987م.

2- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة –المعاني والبيان والبديع، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424ه / 2003 م.

3- شلتاغ عبود شراد، أثر القرآن في الشعر العربي الحديث، دار المعرفة ، ط1، 1987م.

4- ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار النهضة، القاهرة، دط، دت.

5- عائشة حسين فريد، وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، دار قباء، القاهرة، دط، 2000 م.

6- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، دط، دت.

7- عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983م.

8- عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1983 م.

9- محمد البشير الإبراهيمي، رسالة الضب منشورة ضمن آثار الإمام البشير، جمع وتقديم : أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997م.

10- محمد البشير الإبراهيمي، في قلب المعركة (1954 م- 1964 م)، جمع وتصدير: أبو القاسم سعد الله، دار الأمة، الجزائر، ط 1، دت.

11- محمد السعيد الزاهري، الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير، دار الكتاب، الجزائر، دط، دت.

12- محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتحديد، دار الجيل، بيروت، ط 1، 1412 ه /1992م.

ثانيا- الرسائل الجامعية:

1- محمد محي الدين، ثقافة البشير الإبراهيمي وأثرها في أسلوبه -عيون البصائر نموذجا، (رسالة ماجستير)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2007 م - 2008م.

2- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي واللغة العربية، (رسالة ماجستير)، جامعة دمشق، كلية الآداب، 1986 م - 1987 م.